بين الوسيلة والغاية

بين الوسيلة والغاية

المنطلقات الأساسية في تكوين الإيمان هي المعرفة العقلية في المرحلة الأولى؛ لأنها تبنى على الاعتقاد الفكري ثم تتحقق هذه المنطلقات في سلوك الأسس التربوية الروحية لتكامل المعرفة لدى المؤمن، وإن المسلمين قد أخطأوا في تقييمهم للغاية والوسيلة، فمنهم من جعل الغاية هي السلوك الصوفي، وذلك بسبب الإشراقات الروحية التي مارسوها وعاشوا فيها ولم يتجاوزوها إلى الهدف وهو العبودية، وهو الغاية من وجود المسلم ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وتحديد الهدف، ومعرفة الوسيلة ثم الالتزام بالشريعة أي الكتاب والسنة كضوابط في تحديد الهدف، ومعرفة الوسائل تجعل التربية الروحية وسيلة لا غاية؛ وهذا ما أخطأ فيه الصوفيون، فالتصوف، والتربية الروحية القرآنية، هي وسيلة معينة لممارسة المعرفة الذوقية وشحن طاقات الإنسان ليقوم بالعبادات بسهولة ويسر وإتقان واستمرار. والصوفيون على مر العصور الإسلامية أصابهم شيء من الذهول والزهد والبعد عن الحياة عند بوارق الكشف، فاكتفوا بلذاتهم الروحية، وصفاء الخلوة، ورقة التبتل، ولو جعلوا هذه هي الوسيلة لما اعترى الإسلام الضعف من جراء خواء الحضارة في حالة تزايد هؤلاء الروحانيين الذين

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

كانوا يستطيعون تحقيق تكامل الإسلام في أنفسهم لو جعلوا موازنة دقيقة بين الهدف والوسيلة، وعملوا ضمن الوسيلة بضوابط الشريعة لتحقيق الهدف، لكنهم استمروا في الوسيلة ونسوا الغاية التي وضعت من أجلها هذه الوسائل الروحية التربوية.

فالصوفيون في إنتهاجهم الأسلوب الخاص وعدم تعويل بعضهم على الكتاب والسنة، وما أصاب البعض من انحرافات روحية وانغماس في الملذات الروحية، كانوا سبباً في فهم الإسلام فهماً جزئياً، فتركوا الحضارة ولم يسهموا فيها، علماً أنهم لو سخروا الطاقات الروحية التي ملكوها بانتهاج فكر إسلامي متكامل، فلم ينسوا الناحية العسكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، لأخذوا بيد الأمة إلى أرقى الحضارات ولسادوا العالم وحطموا الظلم الاجتماعي.

ومن هنا نستطيع القول بأن التربية الروحية في القرآن هي تربية لغاية، وعمل لهدف، وأسلوب يحقق المسلم به المجتمع الإسلامي السليم المتكامل.

والمسلمون الأوائل احتووا التربية القرآنية فكوّنوا حضارة وفتحوا البلاد وعم الإسلام وشمل الأمن العالم.

وعندما قصر فهم بعض العلماء على جانب واحد من الإسلام وهو التربية الروحية، وتركوا جوانب الحضارة الإنسانية بكل جوانبها، انعزلوا عن الشعوب، وحطموا الحضارة الإسلامية، حتى هزمت من المغول والتتر ثم من الصليبيين ثم الاستعمار الحديث، فالتربية الروحية القرآنية تربية كاملة الوسيلة، كاملة الهدف، لا يطغى عليها جانب دون جانب، وهذا ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام، ولربما يقول بعض الناس: ظهرت التربية الصوفية كرد فعل لامتداد الجانب المادي وطغيانه على الجانب

الروحي، وهنا نقول: إذا كان الانعطاف شديداً نحو المادة فعلينا بالتوازن لا بالانعطاف الشديد نحو الروح، فالتوازن والتكامل والشمول هي خصائص حضارتنا الإسلامية، فالمسلم الذي يعيش في لذة روحية ويترك جميع المسلمين يتضورون جوعاً، ويستعمَرون، ويُذَلون فهو مسلم أناني لم يفهم قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]، وقول رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»[2].

فالمسلم الذي اكتفى بالتربية الروحية، وعاش لذة روحية وزاد في سبحاته الروحية حتى صار روحاً محضاً، يكون قد حطم عرى المجتمع الذي ينتمي إليه وهو الإيثار والتعاون والخير، وإنما عليه أن يعمل ضمن الوسيلة ليحقق الهدف، لا أن يستمر في الوسيلة وينسى هدف التربية الروحية في ترويض النفس لاستقبال الأوامر الإلهية بسهولة ويسر ورضا وحبور.

والتربية الروحية في حالتها المعتدلة هي المطلوبة شرعاً، وأما الزيادة فيها والانغماس في لذاتها، والتخبط في أغوارها، يجعل المجتمع مجتمعاً رهبانياً لا يصلح لبناء حضارة تقارع الحضارات المادية التي تعمل لتقويض الحضارة الإسلامية، وهنا نجد قول الرسول ﷺ عندما شاهد أناساً وسمع عنهم أنهم تعاهدوا على أمور فيها طغيان الروح على المادة فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وأما الثاني فقال: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وأما الثالث فقال: وأما أنا فأعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، والرابع قال: وأما أنا فلن آكل اللحم. هذا شذوذ اجتماعي يحطم بنيان الأمة، فوقف رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ٧، ورواه مسلم في كتاب الإيمان حديث: ٧١، ٧٢.

(٢) رواه الطبراني والبزار بإسناد حسن.

على المنبر وقال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

هذه الشخصية الإسلامية المتوازنة، روح ومادة، فكر واجتماع، توازن في التربية الروحية والفكرية والاجتماعية، لا طغيان في جانب على جانب، وفي هذا السبيل يتقول بعض المتصوفة قائلين: لا نطيق إلا أن نستمر بهذه الأشواق الروحية، ويقولون أقوالاً لم يقلها النَّبي ﷺ ولا الصحابة رضوان الله عليهم.

فهل وصلوا إلى قمة الروح فصاروا في مرتبة أعلى من أصحاب محمد عليه السلام، أو بلغوا شأواً أقوى روحاً من نبيهم الكريم ؟

هذا إفك وزور، فلقد بلغ الرسول عليه الصلاة والسلام قاب قوسين أو أدنى، وعرج به إلى السموات العلى، وكان له لقاءات مع روح القدس، وبلغت به شفافية الروح درجة لم يصل إليها نبي قبله ولا عارف بعده.

فضَبَطَ لسانه وخاطب الناس بما يدركون، وترك الأمور الروحية الخاصة جانباً، ولم يجعلها هدفاً بل حقق من خلالها نفساً طاهرة صافية عظيمة.

وإن دور العارفين بالله هو في قوة روحية ذاتية تربوية يستطيعون من خلالها تربية الأجيال والسمو بها إلى الروح المزكاة لتأخذ دورها في إرساء قواعد الحضارة الإسلامية المتكاملة.

وهنا نجد أمثلة في تاريخ رجال التصوف أمثال الجنيد والغزالي وغيرهما؛ ممن كتموا ما عايشوه في أشواقهم وإشراقاتهم، ولم يتكلموا شططاً من

---

(١) البخاري ٩/ ١٠٤، ومسلم ٣/ ١٠٢٠.

القول؛ احتفظوا بكل ذلك لأنفسهم أو للخواص من تلاميذهم، وأوصوهم بعدم الخوض في هذا المجال لأنه وسيلة لا غاية، والهدف إمكانية امتلاك الإرادة في العبادات، وقوة التأثير في العباد، وتحويل هذه الطاقة إلى أعمال فاضلة تصلح المجتمع وتبنيه بناء أخلاقياً تربوياً روحياً سامياً، وبناءً حياتياً قوياً متقدماً.

وأما بعض المتصوفين الذين عاشوا في إشراقاتهم وفضحوا أنفسهم وقالوا ما لم يقل أحد من الصحابة الكرام فلا يقبل قولهم المخالف، إن صح النسب في ذلك إليهم. فقد أخطأ من نقل عنهم ذلك القول وتلك الكلمات التي لا تحقق هدفاً ولا تبني غاية، ولا ترسي قواعد بناء فرد ومجتمع سليم. والتربية الروحية القرآنية المتوازنة المتكاملة هي المعين الصافي الذي يجب أن نبرمجه لتشييد المجتمع الإسلامي الصحيح، فالإسلام عبادة، ومعاملة، وحضارة، وإنسانية، واقتصاد واجتماع، وغير ذلك، فإن قَصَرْنا الإسلام على ناحية واحدة من هذا نكون قد قدمنا جزءاً واحداً من أجزاء متكاملة يظهر فيها جمال الإسلام وتظهر عظمته، فالإسلام كل لا يتجزأ ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1]، وما نجده في المجتمعات البشرية الإسلامية في عالمنا من الخزي والضعف والفقر والمرض والذل والهوان كله حدث عندما تركنا جوانب من الإسلام، وتمسكنا بجوانب أخرى؛ تمسكنا بالقشور وتركنا اللباب، تمسكنا بالصور ولم نتمسك بالحقائق، فالإسلام كل لا يتجزأ صورة وحقيقة، مادة وروح، عبادة ومعاملة، سياسة واقتصاد، قوة ورحمة، كل ذلك جوانب هامة من جوانب الإسلام العظيم.

---

(١) سورة البقرة: ٨٥.

القلب في القرآن

القلب في القرآن

ترددت الآيات الكثيرة التي تركّز على التربية الروحية معتنية بالقلب الذي هو مناط المسؤولية الروحية، وعلينا أن نتبين ماهيته، وأنواعه، وأهميته، والآيات التي ذكرته، ومكانته في التربية الروحية القرآنية.

الآيات القرآنية التي ذكرت القلب بكل أنواعه:

- ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾

[سورة الحج: ٤٦]

- ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [سورة الحديد: ١٦]

- ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

[سورة البقرة: ٢٢٥]

- ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة الأحزاب: ٥]

- ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٤]

- ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٤]

- ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٧]

- ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: ٤١]

- ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة التوبة: ٨]

- ﴿ نُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ [سورة التوبة: ٦٤]

- ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٧٥-٧٧]

- ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [سورة البقرة: ١٠]

- ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [سورة المائدة: ٥٢]

- ﴿ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [سورة الأنفال: ٤٩]

- ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [سورة النور: ٥٠]

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٤]

- ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة البقرة: ٧]

- ﴿ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [سورة الشورى: ٢٤]

- ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ [سورة الأنعام: ٤٦]

- ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣]

- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة النحل: ١٠٨]

- ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥]

- ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ [سورة البقرة: ٨٨]

- ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ ﴾ [سورة النساء: ١٥٥]

- ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٠٠]

- ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٥٩]

- ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة يونس: ٧٤]

- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [سورة محمد: ١٦]

- ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٨٧]

- ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة التوبة: ٩٣]

- ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ سورة الإسراء: ٤٦]

- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [سورة الكهف: ٥٧]

- ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين: ١٤]

- ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سورة محمد: ٢٤]

- ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٣]

- ﴿ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [سورة المنافقون: ٣]

- ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]

- ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [سورة غافر: ٣٥]

- ﴿ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٢٢]

- ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [سورة التوبة: ١٢٧]

- ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة البقرة: ١١٨]

- ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٤]

- ﴿ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ٩٧]

- ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [سورة ق: ٣٧]

- ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤]

- ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٦٣]

- ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الزمر: ٢٢]

- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الحج: ٥٢-٥٤]

- ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنعام: ٤٣]

- ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [سورة المائدة: ١٣]

- ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٢]

- ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾

[سورة الحج: ٣٥]

- ﴿ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [سورة المؤمنون: ٦٠]

- ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [سورة النازعات: ٨]

- ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ ﴾ [سورة غافر: ١٨]

- ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [سورة الأحزاب: ١٠]

- ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [سورة الأنفال: ١٢]

- ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾

[سورة آل عمران: ١٥١]

- ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٦]

- ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [سورة الحشر: ٢]

- ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة التوبة: ١٥]

- ﴿ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٦]

- ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

[سورة الزمر: ٤٥]

- ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [سورة الأنفال: ٢٤]

- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الرعد: ٢٨]

- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٦﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾

[سورة الأنفال: ١٠ـ١١]

- ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [سورة النحل: ١٠٦]
- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الكهف: ١٤]
- ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [سورة الفتح: ١٨]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الفتح: ٤]
- ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

[سورة آل عمران: ١٥٤]

- ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]
- ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ [سورة الحجرات: ٣]
- ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [سورة ق: ٣٣]
- ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الصافات: ٨٤]
- ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ٨٩]
- ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾ [سورة الأحزاب: ٥٣]
- ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ٧]
- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [سورة المجادلة: ٢٢]
- ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢]
- ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [سورة التغابن: ١١]
- ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [سورة التوبة: ٤٥]

- ﴿ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: ١١٠]

- ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [سورة الفتح: ١٢]

- ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [سورة آل عمران: ٧]

- ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [سورة الكهف: ٢٨]

- ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [سورة الأنبياء: ٣]

- ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ [سورة البقرة: ٩٣]

- ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [سورة البقرة: ٩٣]

- ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾

[سورة الفتح: ٢٦]

- ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [سورة الحشر: ١٤]

- ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة يونس: ٨٨]

- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [سورة النساء: ٦٣]

- ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٥١]

- ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٠]

- ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ [سورة آل عمران: ٨]

ثم إننا لنجد آيات القرآن الكريم تذكر وتكرر كلمة الفؤاد، ونجد (١٥) آية فيها لفظ الفؤاد، وهي كلمة مرادفة لمعنى القلب.

كما نجد آيات ذكرت الصدر وعددها مائة وإحدى وأربعون آية.

معنى القلب:

فلو أردنا الغوص في تحليل معنى القلب في كل آية لما وسعنا هذا البحث ولاضطررنا لكتابة مجلد خاص حول القلب بذكر ماهيته، ومكانته في القرآن الكريم، والأمراض التي تطرأ عليه، وسنبين أقسام القلوب وأنواعها.

ماهيته:

جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح والنفس وهو الذي تتحقق فيه الإنسانية، ويسميه الحكماء النفس الناطقة، والروح الباطنة، والنفس الحيوانية هي المتوسطة بينه وبين الجسد.

أقسام القلب هي:

القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح.

١ـ القلب الأجرد: فقلب المؤمن سراجه فيه نور، أي أجرد عن الصفات الذميمة، لا حقد فيه، ولا غش ولا مكر ولا حسد.

٢ـ وأما القلب الأغلف: أي مختوم عليه، وهو قلب الكافر.

٣ـ وأما القلب المنكوس: فهو قلب المنافق، عرف ثم انتكس.

٤ـ وأما القلب المصفح: فقلب فيه إيمان ونفاق.

القلب: مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط

والقلب ليس المنوط به مضخة الدم، وإنما هو الذي تتمركز فيه الجوانب العاطفية في الإنسان، وتتمثل فيه المشاعر الوجدانية من حب وكره،

وشجاعة وخوف، وألم وفرح، ولين وقسوة، وسعادة وشقاء، والهداية والضلال، والاستقامة والزيغ، وتلقي الوحي والتذكر والتفهم والتدبر، و «القلب في القرآن عالم قائم بذاته، اتسعت معانيه وتعددت جوانبه».

والقرآن يحوي على مئة وعشرين آية من آيات القلب، وهذه الآيات الكثيرة تدعونا للاهتمام بالجانب القلبي في التربية الروحية، فهل يمكن أن نتناسى هذه الآيات أو نهملها ونحن مأمورون أن نفكر وندرس كل آية من آيات القرآن، وعندما نسمع قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

تدعونا هذه الآية إلى معرفة طرق العماية، وطرق الإبصار، ففي الحياة رؤية عينية ورؤية قلبية مبصرة؛ وهي التي تضيء النفس بنور الإيمان، فيرى الكون بعين البصيرة لا بعين البصر، وهي القلب، «فجميع عظماء الرجال وهبهم الله بصيرة، فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير الأشياء الهامة التي يجب عليهم أن يعرفوها[2]».

وجاءت هذه الكلمة واضحة في كتاب الله عز وجل بقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[3]، فالقلب المبصر هو المؤشر الحقيقي لتحريك العقل والحواس في إرادة الخير والصواب والبعد عن الشر والخطأ، فالقلب هو جوهر الإنسان، والقرآن اهتم اهتماماً واسعاً بالقلب، وجعله مناط المسؤولية ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾، فالمهم هو القلب وما يحتويه؛ لا ما يظهر على السطح من أقوال مغايرة للقلب. وكان حذر

---

(١) سورة الحج: ٤٦.
(٢) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كارليل ص ١٤٥.
(٣) سورة القيامة: ١٤ـ١٥.

المنافقين كما نبأ القرآن من كشف ما تحتويه قلوبهم، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[1].

وبين أن القلب تعتريه أمور كثيرة ومنها المرض ﴿في قلوبهم مرض﴾، ولا شك أن المرض متعدد الحالات؛ فمرض كبير وهو النفاق؛ وهو أشد مرض من أمراض القلب، وجميع المنافقين يصابون بهذا المرض الخطير، ثم تصل بالمنافقين إلى الطبع والإقفال، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[2]، ثم يذكر بعد الطبع الألفة والإقفال والختم؛ وهذا تأكيد قرآني على أهمية القلب في الإنسان المسلم خاصة ليتحرى دقائقه وخفاياه ومرضه، فلا يقع في محذور، فالقرآن يهدد: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾[3].

ثم نجد تفصيلاً أكثر في وصف الإنسان الذي أهمل قلبه ذا البصيرة، واتخذ إلهه هواه فأضله الله على علم: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

فالإهمال المستمر لهذا الجانب الخطير في الإنسان يؤدي إلى نهاية خطيرة لا تجديه موعظة بعدها، ولا يلتفت إلى أمر أو نهي لأنه قد وصل إلى نهاية مؤلمة وهي: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ

---

(١) سورة التوبة: ٦٤.
(٢) سورة محمد: ٢٤.
(٣) سورة الأنعام: ٤٦.
(٤) سورة الجاثية: ٢٣.

هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾[1]. وهذه نهاية حتمية لمقدمات كثيرة فيها الإهمال والتسيب والنفاق والكفر.

﴿ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[2].

ويتم الطبع والإقفال والختم على الذين لا يريدون معرفة الطرق المؤدية إلى الهداية ولا يعلمون وسائلها، ولا يسألون عنها بجهلهم ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3]، ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[4]، ثم استولى هذا الجحود على نفوسهم فحُجبوا عن الله وصار على قلوبهم ران: ﴿ كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[5]، وكذلك المسلمون إذا غفلوا عن ربهم، ولم يستغفروا أظلم القلب، وتغلف بغمرة الظلمة والآثام، قال تعالى: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ ﴾[6]، فهؤلاء قرنهم القرآن بالأنعام، فقال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾[7]، فالقلب الذي علته الغفلة، وتربعت على عرشه المعصية، وعشعشت في جوانبه محبة الدنيا والانغماس بها يظهر على سطح العمل سلوكاً غير مبصر، وسمعاً مشوهاً وكل ذلك من الغفلة المتحكمة بالمسلم، الذي لم ينتقل إلى الإيمان القلبي والتربية الروحية القرآنية المتكاملة.

والقرآن الكريم يرتفع بالقلب فيجعله موطناً للوحي، ومهبطاً للتنزيل

---

(١) سورة النحل: ١٠٨.
(٢) الأعراف: ١٠٠.
(٣) سورة الروم: ٥٩.
(٤) سورة يونس: ٧٤.
(٥) سورة المطففين: ١٤.
(٦) سورة المؤمنون: ٦٣.
(٧) سورة الأعراف: ١٧٩.

وبه يحتل أعلى مراتب المعرفة الإلهية: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾، ثم يكرر ليؤكد مكانة القلب: ﴿فإنه نزّله على قلبك﴾، فالقلب هو وعاء الرسالة الإلهية، ولذا دعاه ليتذكر وليتأمل وليتفكر: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ ولابد لهذا القلب الواحد أن يتجه اتجاهاً واحداً، فإما أن يتجه إلى خالقه أو إلى مجريات أخرى تستولي عليه فكراً وتذكراً وعبرة وتأملاً، ولذا جاء في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ فلابد لهذا القلب أن يعتنى به العناية التي يستحقها، وإذا سما القلب إلى مدارك الصفاء ألف القلوب الصافية ﴿وألف بين قلوبهم﴾.

ويؤكد لهذا القلب أن يستمر بصفائه لتنجلي منه أسباب الغل ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وتتكامل آثار القلب اجتماعياً ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة﴾ وروحياً ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾[2].

وأما علامة الغفلة فهي القسوة ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[3].

ثم ينذر ويتوعد ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ ويصف المؤمنين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4].

ثم يتدرج في كمالات المؤمنين فيصفهم ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[5]،

---

(١) سورة الحشر: ١٠.
(٢) سورة الحديد: ١٦.
(٣) سورة البقرة: ٧٤.
(٤) سورة الأنفال: ٢.
(٥) سورة النور: ٣٧.

فهؤلاء صنف حصلوا على القلب القرآني النابض بالذكر، المتحول إلى قدرات وإرادات عملية؛ ولكنهم في صحوة مستمرة خائفين وجلين من العودة إلى ما كانوا عليه من غفلة مما صاروا إليه من إيمان وبصيرة، فهم يدأبون محافظين على قلب خاشع، ونفس طاهرة مزكاة، وروح سامية في كمالات المعرفة. ثم أتبع ذلك بنداء مبين واضح بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

وهذا النداء الإلهي للمؤمنين فيه إيضاح وتبيان للذين استجابوا لأمر ربهم ورسالة نبيهم فأحيا الله قلوبهم، فتملكوا القلب المبصر، ثم يهددهم إن لم يستجيبوا ويستمروا على الاستجابة لله وللرسول بالحيلولة بينهم وبين ما وصلوا إليه من قلب ذاكر خاشع مجيب منيب.

ولكي يستمر القلب في حالة طمأنينة لما وصل إليه فلابد له من غذاء مستمر، وقوة دافعة للبقاء على حالته ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[2].

ولابد للمؤمن من الاستمرار بالمجاهدات حتى يحصل على التثبيت والربط ﴿وليربط على قلوبكم﴾ ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ وإذا ما حصل المؤمن على هذه المراتب ورضي الله عنه وعلم ما في قلبه من إيمان وحب وذكر وصفاء، فإنه ينزل السكينة عليه ويثبته بالفتح المبين والقريب ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾[3].

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

(٣) سورة الفتح: ١٨.

وقال أيضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[1].

وإذا حصل المؤمن الذاكر على قلب مطمئن تبدأ مرحلة الامتحان والابتلاء الإلهي ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم ويمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ فإذا صدق اللهَ وأخلص؛ وكان على درجة واعية من المعرفة؛ استمر في العروج والرقي حتى يلقى الله عز وجل، فيأتيه اليقين وهو على يقين شهودي وإيمان غيبي متمكن في القلب المطمئن وإلا حبط عمله فكان من الصاغرين.

وإذا ثبت على إيمانه، وصدق في يقينه حبب إليه الإيمان فتمالكت نفسه وتملكها الإيمان ثم زينه في قلبه ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ وتزيين القلب بتعظيم شعائر الله لتتجلى التقوى على سطح الالتزام سلوكاً ومحبة وهدى واتباعاً وأسوة.

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[2].

وإن القلب الذي لم يقطع هذه الأشواط في معراج المعرفة فهو في مهبط الضياع؛ وقد ذكر الله أصنافاً من أمراض القلوب هي:

١ـ **الريبة والشك**: إنها أمراض تنتج من إهمال صاحبها ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[3].

٢ـ **الظن السيء**: وهو من دواعي الضعف الإيماني القلبي والعقلي

---

(١) سورة الفتح: ٤.
(٢) سورة الحج: ٣٢.
(٣) سورة التوبة: ٤٥.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾[1].

٣ـ زيغ القلوب: وهو علة القلوب التي لم تتعالج بمداومة ذكر الله عز وجل ولم تطهر ولم تخشع؛ وإنما بقيت على قسوتها ولابد لها من أن تظهر سلوكاً ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه﴾.

٤ـ غفلة القلب: وهي علة العلل؛ بل هي بداية الضياع ونهاية المطاف، فالغفلة بعد عن الله، وانغماس كلي في الظلمة، وضياع في مسارب الهوى، وتشرد عن المنهج الإلهي ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2].

٥ـ لَهْو القلب: وهو الداء المستحكم في قلوب المسلمين ﴿لاهية قلوبهم﴾ يميل حيث يميل الهوى؛ فلا استقامة تروعه، ولا موعظة تحذره، ولا آيات تحرك فيه مكامن الخوف والحذر، فمن لها فلا قدرة تحفظه إلا إذا أقلع عن لهوه وعبثه وضياعه.

القلب ومكانته في السنة النبوية:

أكد الرسول ﷺ ارتباط صلاح أمر المؤمن بصلاح قلبه فقال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[3].

ولم يكتفِ بهذا وإنما جعله في موطن الواعظ المذكر فقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه»[4].

---

(١) سورة الفتح: ١٢.
(٢) سورة الكهف: ٢٨.
(٣) البخاري ١/ص ٢٠.
(٤) الديلمي في مسند الفردوس من حديث أم سلمة، وإسناده جيد.

إن دور القلب عند الرسول عليه الصلاة والسلام هو دور المحدث لأهميته فقال ﷺ: «لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر»[1].

ووضح مكان الإيمان وأشار إلى القلب، ومدح المؤمنين فقال: «الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي»[2].

وقال: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب هواه»[3].

وهذا هو القلب الذي كان يستعيذ منه الرسول ﷺ فيقول: «نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب»[4].

* * *

(١) البخاري، كتاب الإيمان ٤/ ٥.
(٢) الترمذي: ص ٨٤.
(٣) رواه مسلم: ٢/ ١٧٠.
(٤) كتاب الترمذي: ص ٥١.

التربية الروحية
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

التربية الروحية
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد بدأت إرهاصات الدعوة عند الرسول ﷺ بأنه كان يرى في منامه، ثم يظهر كفلق الفجر حقيقة ثم حببت إليه الخلوة، وصعد إلى غار حراء خلوة بربه، ترك الناس وأهله، حببت إليه الخلوة الأشهر ذوات العدد حتى إن خديجة رضي الله عنها تستبطئه فترسل في طلبه للتأكد من صحته.

وماذا يوجد في الغار ؟ ذكر لله عز وجل، صفاء للنفس، طهر للقلب، تجميع لطاقات النفس، مخالفة للهوى، تبتل وإنابة، حتى قال أهل مكة: «إن محمداً قد عشق ربه». نعم عشق ربه، لم يذكروا لنا ماذا كان يفعل في غار حراء ؟! لم تبين كتب السيرة بالتفصيل ماذا كان يقول ؟!

أليست هذه تربية روحية لرسول الله عليه الصلاة والسلام ؟

(أليست هذه بدايات التصوف ؟) أليست هذه يا أخي مدعاة للتساؤل ؟ إلهام رباني، وإرادة خالصة وعناية إلهية واصطفاء رباني ؟!

ثم تنزل آيات إقرأ، وتليها آيات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ

وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[1] وماذا يوجد في هذه الآيات ؟.

أليست كلها تربية روحية ؟ صفاء وتهجد، ذكر وتبتل استعداد لحمل القول الثقيل، والدعوة الكبرى، وكأنها تقول له يا محمد كن على استعداد لحمل الأمانة الكبرى واصبر وتصبر، واجعل النفس في أعلى أشواقها لتتحمل نزول الوحي الإلهي، بما فيه من إشراقات روحانية، وأوامر ونواهٍ، وجلد في إيصال الدعوة إلى الناس.

وتبتل إليه تبتيلاً وهذا التبتل هو الانقطاع الكلي عن المادة وأدرانها. واذكر اسم ربك مقرونة مع التبتل لأنها أضخم وسيلة مساعدة لحصول التجليات الإلهية على القلب الطاهر المستعد الذي تجمعت قواه، وسما سمو الصفاء المقرون بالطلب لمعرفة الحقيقة الكلية. وهذه المرحلة استمرت ما يزيد عن ثلاث سنوات تربية روحية عالية، تهجد في الليل، وذكر وانقطاع ثم دعوة سرية، قيام نصف الليل أو ثلثي الليل مع طائفة من المؤمنين.

ثم علينا أن نبحث في الأحاديث التي حض فيها الرسول عليه الصلاة والسلام على هذه المعاني الروحانية في تزكية النفس.

* * *

(١) سورة المزمل: ١ـ٩.

التربية الروحية
عند الصحابة

التربية الروحية عند الصحابة

لقد تابع الصحابة رسولهم في مسيرته الإيمانية، وعاشوا حياة روحية شحذت هممهم، وأرست قوة الإرادة عندهم. فتبدلت طباعهم وتغيرت نفوسهم، وتزكت أرواحهم. وبلغت ببعضهم الغلو في العبادة حتى وصلوا إلى درجة الصوم بدون إفطار، والصلاة دون نوم، والبعد عن النساء. فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى لقاء، ثم خطب فيهم ليهدىء من هذا الغلو ثم أوضح «وأما أنا فأصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

لقد تأججت أرواحهم بمحبة الله، فاستصغروا الدنيا أمام عظمة الله وثوابه فقدموا أنفسهم شهداء العقيدة، واسترخصوا الغالي فأنفقوا أموالهم وجاهدوا بكل ما يملكون وإننا لنجد ذروة التربية الروحية عند أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم مجسدة في سلوكهم وأقوالهم ووجدانهم، فانطلقوا بها فاتحين هداة مهديين.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان سباقاً إلى كل مكرمة يخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام عنه بأنه لم يسبقكم أبو بكر لا بكثرة صلاة ولا

---

(١) البخاري ج ٩ ص ١٠٤.

بكثرة صيام ولكن سبقكم (بشيء وقر في قلبه حب الله وحب رسوله) والحب نتاج التربية الروحية الصحيحة والسليمة وأما ذكرهم لله، فقد تناقلت كتب الحديث الكثير والكثير عن اجتماعهم في بيت الله وذكرهم لله، ويقر الرسول الكريم أعمالهم واجتماعهم؛ ثم إننا لنجد القوة الروحية عند عمر رضي الله عنه حين يخاطب سارية وهو على المنبر ويقول: (يا سارية الجبل). وهذه الحاسة السادسة التي ثبتت علمياً والتي تدل على تجمع الطاقة النفسية والروحية للتوجه إلى عمل بعيد.

وإن أهل الصفة وهم الفئة التي عاشت في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام وكانت تمثل التجمع للقاعدة المؤمنة التي أوت إلى المدينة المنورة، ولم يكن لها القدرة على التعايش مع الظروف المادية للحياة فتفرغت للعبادة والجهاد. وإذا تصفحنا آيات التنزيل وجدنا ذكراً للصحابة بأنهم كانوا يشاركون الرسول في قيام الليل بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾[1].

واهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام للصحابة الكرام بالعناية الروحية من ذكر وقيام الليل وصيام حتى في الأيام الشديدة الحر. كل ذلك أمدهم بقدرة روحية عالية.

ونجد ذلك في أقوال الصحابة الكرام قال ابن عباس رضي الله عنهما (لم يفرض الله فريضة على عباده إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، وأمرهم بذكره في الأحوال كلها).

وقال علي رضي الله عنه: (الخير كله مجموع في أربعة: الصمت والنطق

---

(١) سورة المزمل: ٢٠.

والنظر والحركة، فكل نطق لا يكون في ذكر الله تعالى فهو لغو، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة، وكل حركة لا تكون في تعبد فهي فترة، فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة وحركته تعبداً ويسلم الناس من لسانه ويده)[1].

وعن حارثة قال عنه رسول الله ﷺ: (من أراد أن ينظر إلى عبد نور الله تعالى قلبه بالإيمان فلينظر إلى حارثة).

وقصة حارثة التي تكلم فيها مع رسول الله ﷺ عندما سأله الرسول ﷺ «كيف أصبحت يا حارثة قال: أصبحت مؤمناً حقاً فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام: إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك قال: أصبحت كأني بعرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون، وإلى أهل النار يتعاوون قال: عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالإيمان»[2].

(وأما حنظلة) رضي الله عنه فإنه روي عنه أنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فذكرنا الجنة والنار حتى كأنها رأي العين، فعدت إلى أهلي فضحكت ولقيت الناس فقلت: نافق حنظلة فقال أبو بكر رضي الله عنه: مالك ؟ فأخبرته، فقال: إنا لنفعله أيضاً، فذهب حنظلة إلى النبي عليه الصلاة والسلام فذكر له ذلك فقال: (يا حنظلة لو كنتم في بيوتكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم) أو كما قال: (يا حنظلة ساعة وساعة)[3].

فالتربية الروحية عند الصحابة الكرام كانت عبادة متزنة، وحباً لله

---

(١) اللمع ص/ ١٨٢.
(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة حديث ١٢، ١٣.
(٣) رواه الترمذي في كتاب الزهد باب ٢٨.

ولرسوله عارماً، وسلوكاً طاهراً نقياً، وانطلاقاً شامخاً نحو المعالي بثبات وقوة.

فأهل الصفة هم الفئة التي مثلت فكرة الزهد بكل أبعادها.

وقد تفرغوا للعبادة والجهاد والتعلم والصحبة المستمرة لرسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام، وكان منهم عبد الله بن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر الغفاري، وكثير ممن نقلوا لنا تراثاً نبوياً شاملاً نستقي منه سنة النَّبي ﷺ. وكان قد نقل عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم مكوثهم في المسجد واعتكافهم الطويل والتفافهم حول حلق الذكر، وثناء الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا اللقاء، وهناك أحاديث كثيرة تقرهم على ذلك.

وكل الطرق الصوفية تستند في انطلاقتها الأولى إلى أحد الصحابة الكرام فالنقشبندية تبدأ حين تبدأ بذكر سلسلتها المشهورة بأبي بكر رضي الله عنه.

والقادرية والرفاعية تبدأ سلسلتها بذكر علي كرم الله وجه. وهكذا نجد أن بذور التربية الروحية بدأت منذ عهد الصحابة الكرام وتطورت مناهجها وتفرعت طرقها، وتعمقت استنتاجاتها حتى غدت مدارس روحية لها بصماتها الواضحة في المدّ الروحي الإسلامي.

* * *

الصوفية السلفية
والصوفية الفلسفية

الصوفية السلفية والصوفية الفلسفية

نشأ التصوف مع بداية السلف الصالح (على يد الحسن البصري) والتابعين، وكانت منطلقاته قرآنية نبوية إسلامية صافية، كل ذلك من خلال البدايات المادية التي عاشها المسلمون إزاء الحروب الدامية وبدأت المنازعات الداخلية، وانطلقت التحزبات، وانغمس الناس في المادة، وتزايدت الاهتمامات بالفقه والحديث والتفسير والفرائض والنحو والصرف والشعر، ونسي هؤلاء أن الإسلام علم وفكر وروح. جمعوا آيات الأحكام وأحاديث الأحكام وقصروا العلم على تلك الآيات، ونسوا أن القرآن كل لا يتجزأ. وإزاء هذا الصراع ظهرت فئة اهتمت بالزهد، ثم بالوجدانيات والأخلاق، وتزايدت هذه الاهتمامات وكثر المؤمنون الذين يهتمون بهذه الرياضات الروحانية، والمخالفات النفسية وركّزوا على تكوين الإرادة المسلمة بالذكر ومخالفة النفس، وتقوية الإرادة، ومجاهدة النفس والهوى. وتزايدت أعداد هؤلاء وصار لهم شيوخهم وطرقهم. ثم طرأ على التصوف هذا الانشراخ الكبير منذ وجود الحلاج وأبي يزيد البسطامي والجيلي والسهروردي المقتول الذي ركّز على التصوف الفلسفي الذي تظهر فيه وحدة الوجود والحلول والاتحاد وهي المكاشفة والتجلي والشهود الذي ركّز عليه بعد ذلك ورسخ قواعده ابن العربي في الفتوحات المكية وفصوص الحكم

وهناك مدرسة الجنيد والمحاسبي والقشيري والهروي الأنصاري والغزالي، وعبد القادر الجيلاني، وإبراهيم بن الأدهم، ومعروف الكرخي وعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي وسفيان الثوري كانت هذه المدرسة الثانية تصوفاً سلفياً وسميَّ التصوف الشرعي سماه ابن تيمية وتأثروا بهذا المنهج الصوفي المتقيد بالكتاب والسنة، وأدلو بدلوهم في هذا المضمار العظيم وعلى رأسهم ابن القيم والشوكاني وابن كثير وابن تيمية فصار التصوف سلفياً شرعياً محاطاً بالتقيد بالشريعة السمحاء، بعيداً عن الشطحات الكثيرة، ومعارضاً كل المخالفات لرفع التكاليف، مفصلة موضحة عقيدة التوحيد كما جاءت في الكتاب والسنة، محاربة الفلسفة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية الحديثة والغنوصية التي ظهرت في أقوال المتصوفين الفلاسفة وشطحات أبي يزيد البسطامي وحلولية ابن العربي واستشراق السهروردي المقتول.

لقد أكد هؤلاء العلماء المربون الصوفيون السلفيون التقيد بالشريعة كتاباً وسنة، وعملت على النهج التربوي الروحي الصوفي بذكر الله عز وجل، والإشراق الروحي في النفس وجنبات القلب، والرياضة الروحية والاعتماد على عنصر الصفاء الروحي والطهر النفسي، والعمل المستمر لإيجاد المؤمن بسلوك إسلامي متقيد بالكتاب والسنة، والعمل على النية الصادقة والإخلاص الكامل، والعمل الدؤوب، والتوكل الصادق، والصبر المستمر متقيدين بالشريعة لفظاً وعملاً، سلوكاً وذوقاً، وجداً وإشراقاً. وهنا لا بد لنا من معرفة آراء هؤلاء بأقوالهم منها.

قال السري السقطي: (المتصوف اسم لثلاث معانٍ: وهو الذي لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر

الكتاب والسنة ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الشريعة)[1].

وقال الغزالي في كتابه:[2].

اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين تجعلهما أمام عينيك وتعتبر بها نفسك وغيرك.

فالعلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على حد توقيفاته، إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

والعلامة الثانية قال الهوجيري في الكشف: الشريعة من غير الحقيقة نفاق، والحقيقة من غير الشريعة إلحاد، وتداخلهما كتداخل الروح والجسد، إذا فصلت الروح عن الجسد يضحي بعدها جثة هامدة، وتتلاشى الروح كما يتلاشى الريح.

وإقرار المسلم بالإسلام يشملها جميعاً فقوله: لا إله إلا الله هو الحقيقة، وقوله محمد رسول الله هو الشريعة فمن أنكر الحقيقة كفر ومن رفض الشريعة تزندق[3].

وقال الجنيد: (الطريق مسدود على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول ﷺ).

وقال أيضاً (من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة).

وجاء في طبقات الصوفية للسلمي ص/ ١٥٩ الحلية ج ١٠ ص/ ٢٥٥.

---

(١) عوارف المعارف ص/ ٥٣٩.
(٢) ميزان العمل ص/ ٣٩٩.
(٣) كشف المحجوب ص/ ٩٠.

(الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ولزم طريقته).

وقال الجنيد في طائفة جعلت الوصول إلى الله قرين التفلت من أحكام الشريعة قال في هؤلاء (نعم وصلوا ولكن إلى سقر).

وقديماً قيل: من تفقه ولم يتصوف يعني اعتنى بطهارة قلبه وأخلص عمله لله فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق وقال أبو يزيد البسطامي في نهاية الطريق، عندما وصل إلى الكمال في الذوق، وقد ترك مرحلة الانجذاب التي تأثر فيها بالكشف، وقال ما قال من أقوال لا تقبل شرعاً في الاتحاد والحلول، وعاد إلى نهاية الطريق وأدلى بدلوه في صحو وكمال فقال: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة).

وقال سهل التستري: (أصول طريقتنا سبعة، التمسك بالكتاب، والاقتداء بالسنة، وأكل الحلال، وكف الأذى، وتجنب المعاصي، ولزوم التوبة، وأداء الحقوق)[1] وقال ابن تيمية في كتابه الصوفية والفقراء.

(من الصوفيين صدّيقو هذه الأمة)

وقال محمد إقبال: (إن الإسلام عند الصوفيين يأخذ طابعاً من الجمال والكمال، والإنسانية العالية، والأخوة العالمية، لا تجده في إسلام الفقهاء أو المتكلمين).

وقال أيضاً: (إذا عاد إلى القلب الإسلامي نوره القرآني، وخلقه

---

(١) من أعلام التصوف ص/ ٣٨.

المحمدي وعزمه الإلهي، عاد من جديد إلى الحياة ليقودها سعيدة مطمئنة إلى الله).

وقال: (كان الصوفيون عبر التاريخ، نماذج للجلال الخلقي والروحي، ونماذج للكمال التعبدي والإيماني، ونماذج عالية سامقة في أفق العلم والمعرفة) ص/ ٩.

وجاء في مقدمة ابن خلدون في تعريف التصوف[١].

علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا؛ اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

ولقد قسم المربي الروحي الشيخ أحمد كفتارو التصوف إلى قسمين:

التصوف القرآني.

التصوف الرهباني.

وقال (إن التصوف الرهباني هو الذي حطم وجود العالم الإسلامي الفكري والحضاري، وهو الذي أضعف المسلمين فكرياً وحضارياً).

وأما التصوف القرآني فهو التصوف. وقال: «دعونا من كلمة تصوف ولنعد إلى مصطلح القرآن وهو التزكية والتربية الروحية والتربية الحكيمة التي تعطي إسلام الحياة المتكاملة فكراً وروحاً وخلقاً ومعاملة».

---

(١) ص/ ٣٢٨ المطبعة البهية بالقاهرة.

وأما التصوف القرآني بحقائقه الكلية وواقعه فينقسم أيضاً إلى قسمين:

١ـ التصوف الخلقي.

٢ـ التصوف التحققي.

فالتصوف الخلقي، هو التصوف الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم ولا يستثنى منه أحد وهو التربية الروحية القرآنية الخلقية بترويض النفس لتمثل أخلاق القرآن كاملة.

والتصوف التحققي: هو إدراك مقام الإحسان كما جاء في حديث رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل وقال ما الإحسان ؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والإحسان هو أعلى مراتب الإيمان بل هو اليقين الحقيقي وهو الإيمان الشهودي.

ودليل ذلك حديث حارثة عندما سأله الرسول ﷺ كيف أصبحت يا حارثة قال: (كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار كيف يتعاوون).

وقال له رسول الله ﷺ: (إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك فقال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري).

فقال له النبي (ﷺ) عرفت فالزم[1].

وقال في معرض تحليل التصوف في مجرى الأحداث التاريخية ويشير إلى الصوفيين الفلاسفة: (إن أهل التصوف قعدوا على الأحوال، ولم يتجاوزوها إلى الشريعة فكان التصوف سبباً في ضياع المسلمين لفترة طويلة من الزمن).

---

(١) انظر كنز العمال حديث رقم ٣٦٩٩٠ اتحاف السادة المتقين للزبيدي ٩/ ٣٢٧.

وهذا التصوف الذي سبب هذا الضياع بمعناه الانعزالي وليس بمعناه القرآني الحقيقي.

«والتصوف مرحلة على المسلم أن يقطعها ثم يتجاوزها بعد ذلك إلى الشريعة، وما هو إلا مرحلة لتهذيب النفس، وتطهير للقلب، وترويض للنفس ومعالجة لأمراضها وتقوية للإرادة ليقوى على الطاعة».

وقال وبكل صراحة: «التصوف كلمة نرفضها وتعالوا نرجع إلى مصطلح القرآن والسنة ففي القرآن ذكر الله تعالى، وتزكية النفس، ومجاهدتها ومخالفة الهوى، ومحبة الله وخشيته والإحسان وهو أعلى مراتب الإيمان الشهودي) فلماذا التمسك بهذه الألفاظ التي ترتبط بمصطلحات، يظن البعض أنها دخيلة على الإسلام. فلنعد إلى القرآن والسنة في تربيتنا الروحية ولنتقيد بما جاء في القرآن من معانٍ روحية سامية كافية في إيجاد الروح المزكاة، والنفس الطاهرة، والقلب الذاكر».

ولا يمكن أن ننسى ما للتصوف من فضل كبير في إغناء المضمون الروحي للإسلام وإنبات الحياة الروحية الخصبة العميقة الجذور، التي أغنت المسلمين بالمعاني السامية، ودفعت الفكر الإسلامي، وجعلته قادراً على الاستمرار وإشباع النوازع الروحية والوجدانية في الإنسان المسلم.

ولا شك بأنه أعطى إشعاعاً وجدانياً للعلوم الإسلامية التي جمدتها السلفية المتقيدة بظواهر النصوص الجامدة على الأحكام والتي لم تعتن بالتزكية النفسية والصلة بالله عز وجل والمحبة لله ولرسوله.

وإن واقع الخلاف بين الصوفيين والسلفيين لا يمكن حله بالهجوم المتبادل بينهم، وإنما بالتوافق على ضوء الكتاب والسنة بعيداً عمّا نجده في بعض كتب السلفيين من هجوم عنيف على التصوف دون ذكر محاسن القوم، والتشكيك في منهجهم وجمع الأخطاء، مع التضخيم والتهويل حولهم.

وإننا لنعيش عصراً تزايد فيه الصراع بين الإسلام وأعدائه وهو صراع فكري عقائدي. فلا بد من رأب الصدع بين المسلمين وتقارب الكلمة. فإذا طالبنا الصوفيين بالعودة إلى مصطلحات القرآن والسنة المطهرة دون زيادة أو نقصان، والاعتماد على أسلوب القرآن بمعالجة النفس وتزكيتها وتطهيرها دون الدخول فيما يفرق الكلمة. وقد دعا القرآن النصارى (تعالوا إلى كلمة سواء) فكيف بالمسلمين. فإننا نقول تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم للتقيد بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، وليقف السلفيون أمام آيات التزكية الروحية وآيات القلب وأحاديثه، وآيات ذكر الله عز وجل والإخلاص والإحسان، ولينظروا إلى آيات وأحاديث مخالفة النفس وذم الهوى، ولا يسعني إلا أن أذكر كلمة عمر رضي الله عنه:

(لا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها من الخير محملاً).

ومما يدهش قول مؤلف كتاب الفكر الصوفي عبد الرحمن عبد الخالق الذي كانت مقدمته مليئة بالكلمات السطحية الفارغة من الدليل العلمي، المشحونة بالتشاؤم والسلبية.

إذ يقول: (من أخطر ما استخدموا لتحقيق مآربهم هذه ابتكارهم طرق المتصوفة ومذاهب التصوف) فقوله حاول أعداء الإسلام محو الإسلام بابتكارهم طرق التصوف، هذا كلام فارغ من الدليل العلمي والبرهان الواقعي، لأن المؤلف، ويا للأسف، يغالط نفسه بعد صفحات ليثبت أن علماء التصوف أمثال الغزالي والجنيد وغيره كانوا يتقيدون بالكتاب والسنة، ثم يا أخي هؤلاء هم أساطين هذا العلم، وهم واضعو أسسه ومناهجه، وبهم انتشر الإسلام في أصقاع العالم جنوباً وشرقاً، فكيف نوازن بين دعواهم أن الصوفية من وضع أعداء الإسلام، ثم كونهم يدعون للتقيد بالكتاب والسنة فما هذا التناقض العجيب ؟!

إن النظرة المتطرفة للباحث الملتزم باتجاه معين تجعله ينتقد ويمحص الأمور بنقد حاقد، وليس بفكر المتبصر الذي تستهويه الفكرة ويستجمع مجامع النفس لمعرفة الحقيقة لاستلهام الصواب.

(فالسلفي يحقد على الصوفيين) (والصوفيون يهزؤون بالسلفيين)، والتطرف في كل من الصوفيين والسلفيين أمر خطير يهدم الأمة، (فالسلفي) يجب عليه أن يمعن النظر في منهاج الصوفيين السلفيين المتقيدين بالكتاب والسنة ليزكي نفسه، وليجاهدها في الله ويعمل لتنفيذ أمر الله تعالى عندما يقول: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ (١).

(والصوفي) عليه أن يمحص الدليل ويكون متبعاً لا مبتدعاً باستقامة طاهرة متقيدة بالأسوة الحسنة دون شطط أو مغالاة، ولنضع نصب أعيننا كلمة قالها أحد المخلصين: نتفق فيما نتفق عليه ونعذر بعضنا فيما لا نتفق عليه ثم قال دعوتنا صوفية سلفية ثم إننا سنفرد بحثاً عن صوفية ابن تيمية وابن القيم وهم رواد الفكر السلفي فماذا تقول يا أخي السلفي أمام إشراقات الروح وعنايات ابن تيمية في ذكر الله تعالى وتوضيح معنى الفناء بالله. وأختم حديثي عن حكمة الشيخ أحمد كفتارو في هذا العصر حول التقارب بين الصوفية والسلفية. فهو عالم حافظ لكتاب الله عز وجل، تربى وتزكت روحه في مدرسة صوفية على يد كبار علماء التصوف، فهو يركّز على التربية الروحية بأعلى أشواقها. متقيدة بالكتاب والسنة داعياً إلى نبذ فكرة التعصب للأسماء والمسميات التي توهم الفرقة وتمزق الصفوف، فلا بد من الرجوع إلى مصطلحات القرآن وما فيه من تزكية للنفس، وتطهير للقلب،

---

(١) سورة البقرة: ١٥٢.

وذكر كثير لله تعالى، فهي دعوة خالصة من الشوائب، وفيها إذكاء لروح اللقاء، ورفع الحواجز اللفظية.

فالرسول عليه الصلاة والسلام عاش في غار حراء متبتلاً يجمع طاقاته، لتحمّل الدعوة الإسلامية، بما فيها من صبر وصمود وجلد. وأنى للداعي أن يكون داعياً إن لم تعرج روحه في صلاة خاشعة، وذكر وإنابة وخشوع وتضرع وبكاء وطهر وصفاء. وكان يردد دائماً قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾.

وآخر أقوال الشيخ الدكتور أحمد كفتارو في التربية الروحية:

(التربية الروحية هي قوة تجميع النفس لتولد طاقة الفكر العامل لنصرة الإسلام).

(لقد حُجب المسلمون والعلماء خاصة بفقه مستنبط، ونسوا الأصول وهو كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولذا لا بد لنا من الرجوع إلى القرآن كمصدر للاستنباط في هذا العصر ولتجميع الكلمة ولنبذ الخلافات في المسائل المختلف عليها والتركيز على جوهر القرآن وقراءته قراءة متدبرة لنغوص في معانيه الكبرى لتحقيق الغاية الأساسية وهي العبودية بأعلى معانيها).

* * *

السلفية

السلفية

تعريفها: هي الدعوة للعودة بالإسلام إلى ما كان عليه من الصفاء الأول المعتمد على الكتاب والسنة وذلك بمحاربة البدعة وتخليص المسلمين من الخرافات والشوائب التي دخلت عليهم باسم الإسلام.

البدعة: عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه[1].

حقائق ووقائع

الإسلام دين الله عز وجل قد بين بالكتاب والسنة، وقام العلماء والمصلحون بشرحه وتبيانه للمسلمين. وفي خضم تراكم التيارات المضادة للإسلام ومد رواسب الجاهلية القديمة والحديثة ومن طول الأمد دخلت بعض العقائد والأفكار والقصص والخرافات على المجتمع الإسلامي وحسبوها من الإسلام؛ وهي في حقيقتها ليست من الإسلام في شيء؛ فنحن علينا أن نأخذ الإسلام صافياً نقياً كما أنزل، وننبذ جميع المداخلات والشوائب التي ولجت على الفكر الإسلامي، والتي لا تعتمد على النصوص

---

(١) الاعتصام: ج/١ ص/٣٠.

الثابتة الصحيحة. ويجب أن يسعنا ما وسع أصحاب النبي ﷺ. والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه كانوا أشد منا حباً لله، وأعظم درجة في التقوى. فكل زيادة وكل بدعة وكل شائبة تعارض نصاً قطعياً من كتاب أو سنة، وكل عبادة لم يعملها الرسول ﷺ ولا صحبه الكرام فهي من البدع التي ليست من الإسلام في شيء والسلفية حركة انتشرت في هذا العصر وهي امتداد للعصور الماضية، كان يرأسها شيخ الإسلام (ابن تيمية) رحمه الله، وتلميذه ابن القيم والشيخ الجليل ابن الجوزي، والشوكاني، وابن حنبل، وغيرهم وفي خضم هذا الصراع بين السلفية والصوفية لا بد أن نبين أن الحرب الدائرة بين الصوفيين والسلفيين هي حرب بين الصوفية الفلسفية، التي اعتمدت على الفلسفة اليونانية والهندوكية والفارسية والتي لم ترتكز على الكتاب والسنة ولم تتقيد بالتربية الروحية القرآنية والنبوية. وهذا ما أثبته كبار المربين الروحانيين في الإسلام الذين هاجموا كل الشذوذ عن الكتاب والسنة، وحاربوا وحدة الوجود، والحلول والاتحاد وكل الألفاظ التي تخالف النصوص القطعية الثابتة، وأمثال ذلك ما قاله الغزالي في معرض الهجوم على التصوف الفلسفي المنحرف.

«وأمثال هذه المعارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له»[1].

ويعترض على القائلين بوحدة الوجود والحلول والاتحاد قائلاً:

(كيف يتصور أن لا يشاهد (الصوفي الفيلسوف) إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً)[2].

---

(١) إحياء علوم الدين ج/ ٤ ص/ ٢٧٩.
(٢) الإحياء ج/ ٤ ص/ ٢١٢.

وقد قال أبو الفيض المنوفي في كتابه جمهرة الأولياء:

«فتصوف الحلاج ومن جاراه قد جاوز دائرة الكتاب والسنة، في حين أن تصوف الغزالي ومثله أهل التصوف الإسلامي المحض الذي يلتئم مع كل تعاليم الدين»[1] ثم أردف قائلاً (ففكرة الحلول والاتحاد مستحيلتان في التصوف الإسلامي الصحيح)[2].

ويستخلص نتيجة رائدة في قوله: (إن المتتبع لحياة (الحلاج ومؤلفات السهروردي وابن عربي يرى أنهم تأثروا بفلسفة المسلمين الذين أخذوا عن الفلسفة الأفلاطونية القديمة والأفلاطونية المحدثة والأرسطوطاليسية، ومثل هذا التصوف لا يعتبر إسلامياً قط من حيث إن التصوف الإسلامي الخالص دائماً مستمده الأعلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولا شيء غيرهما)[3].

وقال أحد المتصوفين المتقيدين بالكتاب والسنة وهو ذو النون (علامة العارف ثلاثة: لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقضه عليه ظاهر من الشرع، ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك أسرار محارم الله)[4].

وما أروع الصراحة في العارفين المتمكنين من معرفة الحقيقة إذ يقولون: (فدع الشطح والتزيد ولا تقل مع الحلاج ولا مع السهروردي المقتول ولا مع محي الدين بن العربي ولا مع ابن الفارض في مثل أقوالهم، واعلم أن ضوء المصباح ليس نور المصباح نفسه بل هو قبس من نوره وأثر من آثاره، وأن كل هذه شطحات لا يوافق عليها الشرع وبالتالي لا يوافق عليها التصوف

---

(١) جمهرة الأولياء ص/ ٢٨٤.
(٢) ص/ ٢٩٠.
(٣) ص/ ٢٩٢.
(٤) الرسالة القشيرية ص/ ١٤٣.

الإسلامي الصحيح ولا شيوخ رجاله)[1].

ومن أروع التفصيلات في هذا الباب حول موضوع الفناء ما أوضحه ابن تيمية في مجموعة الرسائل والمسائل[2].

وقد وصف ابن تيمية فناء البسطامي بأنه فناء قاصر فيقول: «إن بعض ذوي الأحوال قد يحصل له في حال الفناء القاصر سكر وغيبة السوى، والسكر وجد بلا تمييز فقد يقول في تلك الحال سبحاني أو: ما في الجبة إلا الله أو نحو ذلك من الكلمات التي تُؤثَر عن أبي يزيد البسطامي وكلمات السكران تطوى ولا تروى ولا تؤدى» ومما يؤيد كلام ابن تيمية قول الجنيد: (إن أبا يزيد رحمه الله مع عظم حاله وعلو إشارته، لم يخرج من حال البداية، ولم أسمع منه كلمة تدل على الكمال والنهاية)[3].

وينتقد القشيري هؤلاء المتصوفة الذين تكلموا بلا ورع، وابتدعوا في أقوالهم، وهاجم الشطح الصوفي وكفر أهل وحدة الوجود والحلول والاتحاد، لأنهم ابتعدوا عن التوحيد فقال: (وكل توحيد لا يصححه الكتاب والسنة فهو تلحيد لا توحيد، وكل معرفة لا يقارنها ورع واستقامة فهي مخرفه لا معرفة)[4].

وقد هاجم الهروي أهل التصوف المنحرف وسماهم بأهل الشطح الفاحش، وبين أن الشطح سببه عدم السكينة في القلب وأكد أن الصوفي في حالة الرضا يستقر قلبه فيمتنع عن كل الشطحات وأسبابها. ويحافظ على مقام العبودية فلا يتعداها.

---

(١) ص/ ٢٩٥ جمهرة الأولياء.
(٢) ج/ ١ ص/ ١٦٨.
(٣) اللمع ص/ ٤٧٩.
(٤) الرسالة القشيرية ص/ ٣.

وأما الغزالي فقد قال: (الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر زائفة وفيها عبارات هائبة، وليس وراءها طائل، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها، بل يصدرها عن خبل في عقله وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعاني الكلام، ولعدم ممارسته لعلم الشريعة، وعدم قدرته على التعبير ولا فائدة من هذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان).

وركّز الغزالي على الاتّباع للأنبياء في هذا الخضم من البحث الخطير قال: «ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيحاء على سبيل التمثيل والإجمال علماً منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال. والعلماء ورثة الأنبياء فما لهم سبيل إلى العدول عن نهج التأسي والاقتداء»[1].

ولذلك أعطى دليلاً ملموساً بأنه يفضِّل التعبير عما يتوهم أنه اتحاد أو حلول بلفظ القرب المشار إليه في الحديث القدسي «ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به»[2] «فهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه» وهذه هي التربية الروحية القرآنية عند الصوفيين الحقيقيين الذين ساروا على هدي الكتاب والسنة.

والسلفية الواعية لا تنزع المضمون الروحي الثابت توافره في الكتاب والسنة، بل تؤيده وتناصره وإن ابن تيمية وابن القيم والهروي والجيلاني

---

(١) الإحياء ج/١ ص/٤.
(٢) متفق عليه.

وابن رجب هم رواد التربية الروحية السلفية ولا ننسى سفيان بن عينية وأحمد بن حنبل وهم علماء حقيقيون ويقول الشاطبي في الاعتصام[1].

«والعلماء الحقيقيون لا يبتدعون وإنما يبتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك» وعلى رغم خوض ابن تيمية وابن القيم في تحديد المعاني الوجدانية والروحانية في الإسلام، وإبراز المقومات السلوكية في التربية الروحية، فقد عمد الكثير من السلفيين إلى صب جام غضبهم على أصحابها وذهبوا إلى إنكار التصوف وكل اتجاه صوفي حتى لو نقل عن المنتسبين إليهم والمتقيدين بمذهبهم.

وعلى رغم هذا العداء من السلفيين المحدثين للتصوف لا يمنعنا أن نذكر ابن تيمية وآراءه السديدة في التصوف المشروع. وهذه تسميته الخاصة، وقد استخدم أساليبهم، وتكلم في الحب الإلهي، والزهد، والعبادات وذكر الفناء، وقسمه إلى أنواع، مستدلاً بالآيات والأحاديث؛ ولم يتشبث بالبحوث العلمية الجافة، بل أكد التذوق الروحي للسالكين في طريق الله وقال: (وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلا أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية)[2].

وقال (من بنى الإرادة والعبادة والعمل والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنة والهدي الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة)[3].

وركّز ابن تيمية في بحوثه، وخاصة في السلوك، على تسمية هؤلاء الصوفيين بصوفية الملاحدة الفلاسفة، وبعضهم ضلال العباد وبعضهم إلى

---

(١) الاعتصام ج/ ٣ ص/ ١٣٦.
(٢) ابن تيمية مجموعة الرسائل الكبرى ج/ ٢ ص/ ٣٢٤.
(٣) السلوك ص/ ٣٦٨.

التصوف المشروع، وصح عنده أن أصحاب التصوف الشرعي مجتهدون في طاعة الله، وقسمهم إلى طوائف ثلاث: صوفية الحقائق وهم الذين مر ذكرهم من المتبعين للشريعة المقتفين لخطى الأوائل، وصوفية الأرزاق وهم الذين وُقفتْ عليهم الوقوف كالتكايا، وصوفية الرسم وهم المقتصرون على النسبة فهمهم اللباس والآداب الوصفية ونحو ذلك»[1].

ولا بد لنا من معرفة آراء الصوفيين في دحضهم لآراء الصوفيين الفلاسفة الحلوليين قال الحلاج: (مذهبنا إفراد القديم عن المحدث)[2].

وأكد أن طريق الخيرات كلها مفتوح لمن اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته:[3].

«إن المجاهدات ضرورية للوصول إلى الحق، ولكن يشترط أداء الفروض والطاعات اقتداء بالسنة دون البدعة»[4].

وقد قدم الغزالي نظريات نقدية للصوفية المخالفين للمنهج السليم ومنهم أصحاب الشطحات مثل الحلاج والبسطامي قائلاً: (أما الاستناد إلى مثل هذه العبارات الآنفة الذكر أي الشطحات الصوفية فإن ضرره عظيم ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان).

وهاجم كل من قال بسقوط التكليف قائلاً: «من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة»[5].

---

(١) رسالة الصوفية والفقراء ص/ ٣٢.
(٢) ابن العماد الشذرات ج/ ٢ ص/ ٢٢٨.
(٣) الحلية ج/ ١٠ ص/ ٢٥٧.
(٤) المصدر السابق ص/ ٢٦٣.
(٥) الإحياء ج/ ١ ص/ ٦١.

ويفند أصناف المتصوفة ويقول: (المتصوفة، وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق كثيرة، ويركّز مرة ثانية على الحلول: (اعتقاده خطأ محض وسفاهة صرفه)[1].

ويقول ابن تيمية مؤيداً الطريق الذي سار عليه الغزالي للوصول إلى الحقيقة:

(إن الغزالي قد سلك الطريق الصحيح في إثبات وجود الله، لأنه نحى هذه المناهج جانباً» ورأى أن الصوفية «يطهرون قلوبهم مما سوى الله، ويملؤونها بذكر الله فيحققون بذلك الإيمان مجملاً، ولكن يشترط لكي تصبح المعرفة عند الصوفي مفضلة أن يكملها بالآثار النبوية)[2].

وقد أثنى عليه ابن تيمية بأنه «اتصف بكثرة الإحسان والعلم الصحيح والقصد الحسن)[3].

ونحن نؤيد كلام ابن تيمية في قوله: «فمن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله فيه متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر»[4].

وإننا نلمح التربية الروحية ساطعة مضيئة في قوله إلى تلميذه ابن القيم «ما يصنع أعدائي بي ؟

أنا جنتي وبستاني في صدري وإن رحت فهي معي لا تفارقني إن حبسي

---

(١) معراج السالكين ص/ ٧١.
(٢) توحيد الربوبية ص/ ٢٤ ابن تيمية.
(٣) ابن تيمية ص/ ٥٥ نقض المنطق.
(٤) الفرقان ابن تيمية ص/ ١١٩.

خلوة وقتلي شهادة وإخراجي من بلدي سياحة»[1].

«وإن ابن تيمية أعلن نقده العنيف لابن عربي ولما ابتدعته فرق الصوفية من ألوان العبادات والعقائد والأذكار المخالفة للشريعة، أو آداب لا تتفق فيما يرى مع مقتضيات الحياة الفردية والاجتماعية. ولكنه لم ينكر جملة التصوف ولم يحث المؤمنين على الابتعاد عنه»[2].

ولهذا اتخذ ابن تيمية من الصوفية المتابعين للشرع أصدقاء له، وأعلن مودته لهم ومحبته إياهم منهم الشيخ الواسطي المتوفى (٧١١ هـ)، الذي أثنى عليه ابن تيمية وسماه جنيد وقته.

ويصرح في مواضع كثيرة بأن الصوفية حق حيث يثمر الإيمان المجمل، ولكنه يضع شرطاً أساساً للإيمان المعضل وهو اقتران ذلك بالعلم النبوي[3].

ويرى التصوف حقاً بشكل صريح في قوله: كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضمّوا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك[4].

وقد قسم ابن تيمية النفس إلى ثلاثة:

١ـ اللوامة وهي التي تذنب وتتوب وتلوم صاحبها على الذنوب، وتلومها يعني ترددها بين الخير والشر.

٢ـ الأمارة بالسوء وهي التي يغلب عليها اتباع الهوى بسبب الذنوب.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص/ ٦٢.
(٢) لاوست النشأة العلمية عند ابن تيمية ص/ ٨٤١ـ٨٤٢.
(٣) مجموعة فتاوي ج/ ٢ ص/ ٢٤.
(٤) مجموع فتاوي ص/ ٧٧.

٣ـ المطمئنة وهي النفس التي صار لها حب الخيرات والحسنات مع بغض الشر والسيئات خلقاً وعادة وملكة من دوام فعلها للخير وتركها للشر.

ويدلي بآرائه في كل صراحة وإقرار بأن العلم الظاهر لا ينفع بدون الأمور الباطنة ويقول: (أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال وإن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها)[١].

ولقد تحدث ابن تيمية عن النفس الصافية، التي فيها رقة الرياضة، فتنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذاباً تاماً، وبين مكانة القلب، فإن لها من التأثير أعظم ما للأبدان، ويختلف هذا التأثير صلاحاً أو فساداً حسب طبيعتها[٢].

وإن ابن تيمية يظهر تأثره بالتربية الصوفية ويقر ويعترف ويقسم الفناء إلى ثلاث درجات.

١ـ الفناء عن إرادة ما سوى الله «بحيث لا يحب ولا يعبد إلا الله كما لا يتوكل إلا عليه عز وجلّ فكمال العبد أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله ورضيه وأحبه»[٣].

٢ـ الفناء عن شهود السوى وسببه «هو انجذاب كثير من السالكين إلى ذكر الله وعبادته ومحبته فلا يشهدون ولا يشعرون بغير الله بحيث يتفق مع حالة أم موسى عليه السلام حيث فرغ قلبها إلا من ذكر موسى».

قال الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ

---

(١) ابن تيمية السلوك ص/ ٩.
(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية ص/ ٢٠.
(٣) ابن تيمية السلوك ص/ ٢١٨.

أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[1]. وهكذا يستغرق صاحب الفناء من هذه الدرجة بدافع الحب أو الخوف أو الطلب، فإذا زاد في انجذاب قلبه واستغراقه (أصبح غائباً بمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته) حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى المنفرد بالخلود والبقاء.

٣ـ والنوع الثالث من الفناء الذي يرى الشيخ ابن تيمية بأن أصحابه هم الذين وقعوا في الحلول والاتحاد وهو حال فيه شطط.

وفي نهاية المطاف لا بد لنا من الإشارة إلى أن علماء التصوف الذين عاشوا حالة روحية فيها شيء من الشهود، ما هم إلا أناس عاشوا مرحلة ونطقوا عنها ثم اعتذروا عنها وهذه الحالات الروحية لها شواهد قرآنية ومنها قصة الخضر مع موسى عليه السلام وغيرها.

* * *

(١) سورة القصص: ١٠.